يقول إنّ السموات على منكب ملك قال: كذب كعب أما ترك يهوديته بعدا! ثم قرأ هذه الآية[1].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤٢﴾.

بلغ قريشًا قبل مبعث رسول الله ﷺ أنّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه، وفي ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان أحدهما من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم والثاني من الأمّة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازي لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفورًا عن الحق وابتعادًا عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجسًا إلى رجسهم﴾[2].

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿استكبارًا﴾ بدل من نفورًا أو مفعول له على معنى ما زادهم إلا أن نفروا استكبارًا وعلوًا ﴿في الأرض﴾ أو حال بمعنى مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيء﴾ معطوفًا على نفورًا.

فإن قُلْتَ: فما وجه قوله ومكر السيء قُلْتُ: أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكر السيء ثم مكر السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر السيء﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر السيء﴾ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر وعن النبي ﷺ: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرًا»[3]، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغيًا﴾[4] يقول الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾[5] وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكبًا وقرأ حمزة ومكر السيء بإسكان الهمزة وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظنّ سكونًا أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتدأ ولا يحيق وقرأ ابن مسعود ومكرًا سيئًا

﴿سنت الأولين﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم وبين أنّ عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها أي لا يغيرها وأن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وقيل ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم وعن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم[6] ثم تلا هذه الآية وعن أنس: أنّ الضب ليموت هزلاً في جحره بذنب ابن آدم[7] وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيرًا﴾ وعيد بالجزاء عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي باب شئت[8].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يس مكية

﴿يس﴾ ﴿١﴾.

قرئ: يس بالفتح كاين وكيف أو بالنصب على أتل يس وبالكسر على الأهل كثير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحيث وفخمت الألف وأميلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: يا إنسان في لغة طيء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما قالوا، في القسم

(1) ذكره الطبري في تفسيره.
(2) سورة التوبة، الآية: 125.
(3) ذكره ابن المبارك في الزهد، وتقدم في يونس.
(4) سورة فاطر، الآية: 43.
(5) سورة يونس، الآية: 23.
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك، وتقدم في يونس.
(7) أخرجه الحاكم في المستدرك وتقدم في النحل.
(8) ذكره الواحدي وابن مردويه والثعلبي في التفسير، الزيلعي 3/ 158.

م الله أيمن الله.

وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾.

﴿الحكيم﴾ ذي الحكمة أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾.

﴿على صراط مستقيم﴾ خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين.

فإن قُلْتَ: اي حاجة إليه خبرًا كان أو صلة وقد علم أنّ المرسلين لا يكونوا إلا على صراط مستقيم؟ قُلْتُ: ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وأيضًا فإنّ التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه(1).

تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾.

قرئ تنزيل العزيز الرحيم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجرّ على البدل من القرآن.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾.

﴿قومًا ما أنذر آباؤهم﴾ قومًا غير منذر آباؤهم على الوصف ونحوه قوله تعالى: ﴿لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك﴾(2) و﴿ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾(3) وقد فسر ما أنذر آباؤهم على إثبات الإنذار ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية لتنذر قومًا أنذر آباؤهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قومًا ما أنذره آباؤهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا﴾(4).

فإن قُلْتَ: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين؟ قُلْتُ: هو على الأوّل متعلق بالنفي أي لم ينذروا، فهم غافلون على أن عدم نذارهم هو سبب غفلتهم وعلى الثاني بقوله إنك لمن المرسلين لتنذر كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنا غافل أو فهو غافل.

فإن قُلْتَ: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قُلْتُ: لا مناقضة لأنّ الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وآباؤهم القدماء من ولد إسمعيل، وكانت النذارة فيهم.

فإن قُلْتَ: ففي أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر فما تصنع به؟ قُلْتُ: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد ﴿القول﴾ قوله تعالى: ﴿لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾(5) يعني: تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾.

ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم، ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾! قُلْتُ: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذا له فلا يزال مقمحًا، والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره يقال: قمح البعير فهو قامح إذا روي فرفع رأسه ومنه شهرا قماح لأنّ الإبل ترفع رؤسها عن الماء لبرده فيهما وهما الكانونان، ومنه اقتحمت السويق.

فإن قُلْتَ: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعًا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كان ذكر الأعناق، دالاً على ذكر الأيدي! قُلْتُ: الوجه ما ذكرت لك والدليل عليه قوله فهم مقمحون ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فهي إلى الأذقان، ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرًا على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج.

فإن قُلْتَ: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيمانهم فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان؟ قُلْتُ: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت.

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾.

وقرئ سدًا بالفتح والضم وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح وما كان من خلق الله فبالضم ﴿فأغشيناهم﴾ فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن

(1) قال أحمد: قد تقدم في مواضع أنّ التنكير قد يفيد تفخيماً وتعظيماً وهذا منه.
(2) سورة القصص، الآية: 46.
(3) سورة سبأ، الآية: 44.
(4) سورة النبأ، الآية: 40.
(5) سورة هود، الآية: 119.

أن تطمح إلى مرئي وعن مجاهد فأغشيناهم فألبسنا أبصارهم غشاوة، وقرئ بالعين من العشا وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدًا يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه، فأخبرهم فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله عينيه[1].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

فإن قلت: قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله إنما تنذر وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيًا **قلت:** هو كما قلت ولكن لما كان ذلك نفيًا للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾.

فقي بقوله: إنما تنذر، على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر وهو القرآن أو الوعظ الخاشون ربهم.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾.

﴿نحيي الموتى﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن إحياؤهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان **﴿ونكتب ما﴾** أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك أو سيئ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم وشيء أحدث فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان، وملاه وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى: **﴿ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخر﴾**[2] أي قدم من أعماله وأخر من آثاره وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد وعن جابر أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية فقال: عليكم دياركم، فإنما تكتب آثاركم قال: فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ[3] وعن عمر بن عبد العزيز لو كان الله مغفلاً شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح والإمام اللوح، وقرئ ويكتب ما قدموا وآثارهم على البناء للمفعول وكل شيء بالرفع.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

﴿واضرب لهم مثلاً﴾ ومثل لهم مثلاً من قولهم عندي من هذا الضرب كذا أي من هذا المثال وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية والمثل الثاني بيان للأوّل، وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية والقرية أنطاكية و**﴿المرسلون﴾** رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان.

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾.

أرسل إليهم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخًا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فأخبراه فقال أمعكما آية فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ورقي حديثهما إلى الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك فقال: حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما وقيل: حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرًا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما: قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال: صفاه وأوجزا قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال: وما آتيكما؟ قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال له: شمعون أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لي عنك سر إنّ إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شابًا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن هم قال شمعون: وهذا فتعجب الملك فلما رأى شمعون أنّ قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا **﴿فعززنا﴾** فقوينا يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدّها وتعزز لحم الناقة، وقرئ بالتخفيف من

---

(1) ذكره ابن هشام في سيرته: 1/ 290 ـ 299.

(2) سورة القيامة، الآية: 13.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: الإمامة والجماعة= (حديث: 2042)، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث: (280 ـ 665).

عزه يعزه إذا غلبه أي فغلبنا وقهرنا ﴿بثالث﴾ وهو شمعون.

فإن قُلْتَ: لم ترك ذكر المفعول به قُلْتُ: لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل وإذا كان الكلام منصبًا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض مطرح، ونظيره قولك حكم السلطان اليوم بالحق الغرض المسوق إليه قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه.

قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾.

إنما رفع بشر ونصب في قوله ما هذا بشراً لأنّ إلا تنقض النفي فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه فلا يبقى له عمل.

فإن قُلْتَ: لم قيل إنا إليكم مرسلون أوّلاً

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾.

و ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ آخر قُلْتُ: لأنّ الأوّل ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار(1)، وقوله ربنا يعلم جار مجرى القسم في التوكيد وكذلك قولهم شهد الله وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم.

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾.

﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته وإلا فلو قال المدعي والله إني لصادق فيما ادعي ولم يحضر البينة كان قبيحًا.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾.

﴿تطيرنا بكم﴾ تشاءمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا كما حكى الله عن القبط وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه وعن مشركي مكة وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك وقيل: حبس عنهم القطر، فقالوا ذلك وعن قتادة إن أصابنا شيء كان من أجلكم.

قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾.

﴿طائركم معكم﴾ وقرئ طيركم أي سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفرهم ومعاصيهم وقرأ الحسن أطيركم أي تطيركم، وقرئ أئن ذكرتم بهمزة الاستفهام وحرف الشرط وآئن بألف بينهما بمعنى: أتطيرون إن ذكرتم وقرئ أأن ذكرتم بهمزة الاستفهام وأن الناصبة يعني: أتطيرتم لأن ذكرتم، وقرئ أن وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار أي تطيرتم لأن ذكرتم أو إن ذكرتم تطيرتم، وقرئ أين ذكرتم على التخفيف أي شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم وإذا شئم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ في العصيان ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿رجل يسعى﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام وهو ممن آمنوا برسول الله ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل، وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة فقالوا: أو أنت تخالف ديننا فوثبوا عليه فقتلوه وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره وقيل رجموه، وهو يقول اللهم اهد قومي وقبره في سوق انطاكية فلما قتل غضب الله عليهم فاهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام وعن رسول الله ﷺ: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون»(2).

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾.

﴿من لا يسئلكم أجرًا وهم مهتدون﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي لا تخسرون معهم شيئًا من دنياكم وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله:

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ مكان قوله ومالكم لا تعبدون الذي فطركم ألا ترى إلى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني وإليه أرجع.

أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾.

وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: آمنت بربكم

---

(1) قال أحمد: أي فلاق توكيده.

(2) رواه الطبراني في معجمه.

فاسمعون يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم، وإليه مرجعكم وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم، ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز، وقيل لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به، وقرئ إن يردني الرحمن بضر بمعنى أن يوردني ضرًا أي يجعلني موردًا للضر، أي لما قتل.

قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿قيل﴾ له ﴿ادخل الجنة﴾ وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق أراد قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين﴾[1] وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها.

فإن قُلْتَ: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قُلْتُ: مخرجه مخرج الاستئناف لأنّ هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأنّ قائلاً قال كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلومًا وكذلك ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببًا لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة، وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حيًا وميتًا»[2] وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البغي والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأنّ عداوتهم لم تكسبه إلا فوزًا ولم تعقبه إلا سعادة لأنّ في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور والأوّل أوجه.

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾.

وقرئ: ﴿المكرمين﴾.

فإن قُلْتَ: ما في قوله تعالى: ﴿بما غفر لي ربي﴾ أي المآت هي قُلْتُ: المصدرية أو الموصولة أي بالذي غفره لي من الذنوب ويحتمل أن تكون استفهامية يعني بأي شيء غفر لي ربي يريد به ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل إلا أنّ قولك بم غفر لي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزًا يقال قد علمت بما صنعت هذا أي بأي شيء صنعت وبم صنعت.

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾.

المعنى أنّ الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جندًا من جنود السماء كما فعل يوم بدر أو الخندق.

فإن قُلْتَ: وما معنى قوله: ﴿وما كنا منزلين﴾ قُلْتُ: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جندًا من السماء، وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة أوجبته المصلحة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا﴾[3].

فإن قُلْتَ: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها﴾[4]، بألف من الملائكة مردفين، بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين؟ قُلْتُ: إنما كان يكفي ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكنّ الله فضل محمدًا ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار وأولاه من أسباب الكرامة والإعذار ما لم يوله أحدًا فمن ذلك أنه أنزل له جنودًا من السماء وكأنه أشار بقوله: ﴿وما أنزلنا﴾ ﴿وما كنا منزلين﴾: إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك وما كنا نفعله بغيرك.

إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامّة أي ما وقعت إلا صيحة والقياس والاستعمال على تذكير الفعل لأنّ المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وإن الصيحة في حكم فاعل الفعل ومثلها قراءة الحسن فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وبيت ذي الرمّة، وما بقيت إلا الضلوع الجراشع، وقرأ ابن مسعود الأزقية واحدة من زقا الطائر يزقو ويزقى

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 ـ 170.

(2) رواه ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي: 3/163.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 40.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 9.

إذا صاح ومنه المثل أثقل من الزواقي ﴿خامدون﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رمادًا كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿يا حسرة على العباد﴾ نداء للحسرة عليهم كانما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى: تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة من قرأ يا حسرنا تعضد هذا الوجه لأنّ المعنى يا حسرتي، وقرئ يا حسرة العباد على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من حيث أنها موجهة إليهم ويا حسرة على العباد على إجراء الوصل مجرى الوقف.

أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾.

﴿ألم يروا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في ﴿كم﴾ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم يروا إن زيدًا لمنطلق وإن لم يعمل في لفظه و﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى لا على اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وعن الحسن كسر إن على الاستئناف وفي قراءة ابن مسعود ألم يروا من أهلكنا والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال وهذا مما يردّ قول أهل الرجعة ويحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له إن قومًا يزعمون أنّ عليًا مبعوث قبل يوم القيامة فقال: بئس القوم نحن إذن نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه[1].

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾.

وقرئ: ﴿لما﴾ بالتخفيف على أن ما صلة للتأكيد، وإن مخففة من الثقيلة وهي متلقاه باللام لا محالة ولما بالتشديد بمعنى إلاّ كالتي في مسألة الكتاب نشدتك بالله لما فعلت وإن نافية، والتنوين في كل هو الذي يقع عوضًا من المضاف إليه كقولك مررت بكل قائمًا والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة، وقيل: محضرون معذبون.

فإن قُلْتَ: كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد؟ قُلْتُ: ليس بواحد لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت منهم أحد والجميع معناه الاجتماع وأن المحشر يجمعهم والجميع فعيل بمعنى مفعول يقال حي جميع وجاؤوا جميعًا[2]، القراءة بالميتة على الخفة أشيع لسلسها على اللسان.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿أحييناها﴾ استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما[3] فعوملا معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه، ولقد أمرّ على اللئيم يسبني، وقوله ﴿فمنه ياكلون﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء.

وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾.

قرئ: ﴿وفجرنا﴾ بالتخفيف والتثقيل والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظًا ومعنى، وقرئ ﴿ثمره﴾ بفتحتين وضمتين وضمة وسكون والضمير لله تعالى.

لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾.

والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿و﴾ من ﴿ما عملته أيديهم﴾ من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله يعني: أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كدّ بني آدم وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا وفجرنا فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبلق ... كأنه في الجلد توليع البهق

فقيل له فقال: أردت كأن ذاك ولك أن تجعل ما نافية على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه.

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 3/145.

(2) قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه أخص منه وأزيد معنى.

(3) قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع جملة صفة للمعرف، وإن =

= كان جنسياً وليس الغرض منه معيناً، ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفي ومنه:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني

obeikandi.com

وقرئ على الوجه الأول وما علمت من غير راجع وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير ﴿الأزواج﴾ الأجناس والأصناف ﴿ومما لا يعلمون﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقًا إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يسمهم وفي الحديث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ونحوه فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾.

سلخ جلد الشاة إذا كشطه عنها وأزاله ومنه سلخ الحية لخرشائها فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله ﴿مظلمون﴾ داخلون في الظلام يقال: أظلمنا كما تقول أعتمنا وأدجينا.

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾.

﴿لمستقرّ لها﴾ لحد لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب لأنها تتقصاها مشرقًا مشرقًا ومغربًا مغربًا حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب وقيل: مستقرها أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة، وقرئ تجري إلى مستقر لها وقرأ ابن مسعود لا مستقر لها أي: لا تزال تجري لا تستقر، وقرئ لا مستقر لها على أنّ بمعنى ليس ﴿ذلك﴾ الجري عن ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور المحيط علمًا بكل معلوم.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾.

قرئ: ﴿والقمر﴾ رفعا على الابتداء أو عطفًا على الليل يريد من آياته القمر ونصبًا بفعل يفسره قدرناه ولا بدّ في ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل والمعنى قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوّ السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس و﴿عاد كالعرجون القديم﴾ وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة وقال الزجاج: هو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف، وقرئ العرجون بوزن الفرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون والقديم المحول، وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجه وقيل: أقل مدّة الموصوف بالقدم الحول فلو أنّ رجلاً قال: كل مملوك لي قديم، فهو حر أو كتب ذلك في وصيته عتق منهم من مضى له حول أو أكثر.

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾.

وقرئ: ﴿سابق النهار﴾ على الأصل والمعنى أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسمًا من الزمان وضرب له حدًا معلومًا ودبر أمرهما على التعاقب فلا ينبغي للشمس أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله ﴿أن تدرك القمر﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ولا يسبق الليل النهار، يعني: آية الليل آية النهار وهما النيران ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ويطلع الشمس من مغربها.

فإن قُلْتَ: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قُلْتُ: لأنّ الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها عن سير القمر والقمر خليقًا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وكل﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه والمعنى وكلهم والضمير للشموس، والأقمار على ما سبق ذكره.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾.

﴿ذريتهم﴾ أولادهم ومن يهمهم حمله وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهنّ مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعني النساء.

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿من مثله﴾ من مثل الفلك ﴿ما يركبون﴾ من الإبل وهي سفائن البر وقيل: الفلك المشحون سفينة نوح ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل

أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ومن مثله من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق.

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿لا صريخ﴾ لا مغيث، أو لا إغاثة يقال أتاهم الصريخ **﴿ولا هم ينقذون﴾** لا ينجون من الموت بالغرق.

إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾.

﴿إلا رحمة﴾ إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة **﴿إلى حين﴾** إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق ولقد أحسن من قال:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام[1]

وقرأ الحسن رضي الله عنه نغرقهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ كقوله تعالى: **﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾**[2] وعن مجاهد ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر وعن قتادة ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة **﴿لعلكم ترحمون﴾** لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله:

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ فكأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ثم قال ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾.

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون لو شاء الله لأغنى فلانًا ولو شاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادرًا على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله يعنون قوله، وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم **﴿إن أنتم إلاّ في ضلال مبين﴾** قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾.

قرئ: **﴿وهم يخصمون﴾** بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها وإتباع الياء الخاء في الكسر ويختصمون على الأصل، ويخصمون من خصمه والمعنى أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون، ومعنى خصمون، يخصم بعضهم بعضًا وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿فلا يستطيعون﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم **﴿توصية﴾** ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾.

قرئ الصور بسكون الواو وهو القرن أو جمع صورة وحرّكها بعضهم و **﴿الأجداث﴾** القبور وقرئ بالفاء **﴿ينسلون﴾** يعدون بكسر السين وضمها وهي النفخة الثانية.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾.

قرئ يا ويلتنا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وأهبه غيره وقرئ من هبنا بمعنى أهبنا وعن بعضهم أراد هب بنا فحذف الجار وأوصل الفعل، وقرئ من بعثنا ومن هبنا على من الجارة والمصدر و **﴿هذا﴾** مبتدأ و **﴿ما وعد﴾** خبره وما مصدرية أو موصولة، ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد وما وعد خبر مبتدأ محذوف أي هذا وعد الرحمن أي مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعد **﴿الرحمن وصدق المرسلون﴾** حق، وعن مجاهد للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا من بعثنا وأما هذا ما وعد الرحمن فكلام الملائكة، عن ابن عباس وعن الحسن كلام المتقين وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضًا.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت ما مصدرية كان المعنى هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله وصدق المرسلون إذا

---

(1) سلمت من الحمام إلى الحمام؛ لأنه تعالى: أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق، فتلك السلامة متاع إلى حين أي: إلى أجل يموتون فيه ولا بد.

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

جعلتها موصولة! **قُلْتُ:** تقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون بمعنى والذي صدق فيه المرسلون من قولهم صدقوهم الحديث والقتال ومنه صدّقني سن بكرة.

فإن قُلْتَ: من بعثنا من مرقدنا سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جوابًا؟ **قُلْتُ:** معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلاّ أنه جيء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين.

إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿٥٣﴾.

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة.

فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿٥٤﴾ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴿٥٥﴾.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئًا﴾. ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾ حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود وتمكين له في النفوس وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم ووقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده ثوابًا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم وذلك بعد الوله والصبابة والفصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى، والخشية، وتخطي الأهوال وتجاوز الأخطار وجواز الصراط ومعاينة ما لقي العصاة من العذاب، وعن ابن عباس في افتضاض الأبكار وعنه في ضرب الأوتار وعن ابن كيسان في التزاور وقيل: في ضيافة الله، وعن الحسن شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه وعن الكلبي هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم لأن لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم، قرئ في شغل بضمتين وضمة وسكون وفتحتين وفتحة وسكون، والفاكه والفكه المتنعم والمتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذلك الفكاهة وهي المزاحة، وقرئ فاكهون وفكهون بكسر الكاف وضمها كقولهم رجل حدث وحدُث ونطس ونطس وقرئ فاكهين وفكهين على أنه حال والظرف مستقر.

هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴿٥٦﴾.

﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيدًا للضمير في شغل وفي فاكهون على أنّ أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال، وقرئ في ظلل والأريكة السرير في الحجلة وقيل: الفراش فيها وقرأ ابن مسعود متكئين.

لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴿٥٧﴾.

﴿يدّعون﴾ يفتعلون من الدعاء أي يدعون به لأنفسهم كقولك اشتوى واحتمل إذا شوي وجمل لنفسه قال لبيد: فاشتوى ليلة ريح واجتمل. ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه كقولك: ارتموه وتراموه وقيل: يتمنون من قولهم ادع عليّ ما شئت بمعنى تمنه علي وفلان في خير ما ادّعى أي في خير ما تمنى قال الزجاج: وهو من الدعاء أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

سلام قولا من رب رحيم ﴿٥٨﴾.

و**﴿سلام﴾** بدل مما يدعون كأنه قال لهم: سلام يقال لهم **﴿قولاً من﴾** جهة **﴿رب رحيم﴾** والمعنى أنّ الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم ولهم ذلك لا يمنعونه قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وقيل: ما يدعون مبتدأ وخبره سلام بمعنى ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه وقولاً مصدر مؤكد لقوله تعالى: ولهم ما يدعون سلام أي عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه، وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين وعن ابن مسعود سلامًا نصب على الحال أي لهم مرادهم خالصًا.

وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴿٥٩﴾.

﴿وامتازوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ونحوه قوله تعالى: **﴿يوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرّقون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا﴾**[1] الآية يقال مازه فانماز وامتاز وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى، ولا يرى ومعناه: أنّ بعضهم يمتاز من بعض.

۞ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿٦٠﴾.

العهد الوصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم.

---

(1) سورة الروم، الآيات: 14 ـ 16.

وقرئ اعهد بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء واعهد بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب واحهد بالحاء وأحد وهي لغة تميم ومنه قولهم: دحا محا.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمٰن إذ لا صراط أقوم منه، ونحو التنكير فيه ما في قول كثير:

لئن كان يهدي برد أنيابها العلى ... لأفقر مني إنني لفقير

أراد إنني لفقير بليغ حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه فيّ وإلا لم يستقم معنى البيت وكذلك قوله: **﴿هذا صراط مستقيم﴾** يريد صراط بليغ في بابه بليغ في استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه، ويجوز أن يراد هذا بعض الصرط المستقيمة توبيخًا لهم على العدول عنه والتفادي عن سلوكه كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة كأنه قيل أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده هذا فيما أظنّ قول نافع غير ضار توبيخًا له على الإعراض عن نصائحه.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قرئ: **﴿جبلاً﴾** بضمتين، وضمة وسكون، وضمتين وتشديدة وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة، وهذه اللغات في معنى الخلق، وقرئ: **﴿جبلاً﴾** جمع جبلة كفطر وخلق وفي قراءة علي رضي الله عنه: جبلاً واحدًا لا جبالا.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

يروى أنهم يجحدون، ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذٍ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيز عليّ شاهدًا إلا من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل»(1)، وقرئ: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وقرئ ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كي والنصب على معنى ولذلك تختم على أفواههم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أنّ الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة **﴿فاستبقوا الصراط﴾** لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط أو يضمن معنى: ابتدروا أو يجعل الصراط مسبوقًا لا مسبوقًا إليه أو ينتصب على الظرف والمعنى أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردّدوا إليها كثيرًا كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا وتعايا عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره أو لو شاء لأعمالهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقًا يعني: أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا به وضربوا به من المقاصد دون غيرها.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿على مكانتهم﴾، وقرئ: على مكاناتهم والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسخناهم مسخًا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضيّ ولا رجوع واختلف في المسخ فعن ابن عباس لمسخناهم قردة وخنازير، وقيل: حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ مضيًا بالحركات الثلاث فالمضيّ والمضي كالعتي والمضيّ كالصبيّ.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ننكسه في الخلق﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشدّه، ويستكمل قوّته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عزّ وجلّ: ﴿ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئًا ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وهذه دلالة على أنّ من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوّة إلى

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (الحديث رقم: 17 ـ 2969).

الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ بكسر الكاف وننكسه وننكسه من التنكيس والإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ بالياء والتاء.

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أنّ القائل عقبة بن أبي معيط فقيل ﴿وما علمناه الشعر﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أنّ القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه فإذًا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت اللهمّ إلا أنّ هذا لفظه عربي كما أنّ ذاك كذلك ﴿وما ينبغي له﴾ وما يصح له، ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يات له ولم يتسهل كما جعلناه أميًا لا يتهدّى للخط ولا يحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وعن الخليل كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له.

فإن قلتَ: فقوله:

أنا النبي لا كذب[1] أنا ابن عبد المطلب

وقوله:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت[2]

قلتُ: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة، ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزونًا كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرًا، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز على أنّ الخليل ما كان يعدّ المشطور من الرجز شعرًا ولما نفي أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ يعني: ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجنّ كما قال: إن هو إلا ذكر للعالمين، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين.

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾.

﴿لينذر﴾ القرآن أو الرسول وقرئ لتنذر بالتاء ولينذر من نذر به إذا علمه ﴿من كان حيًا﴾ أي: عاقلاً متأملاً لأنّ الغافل كالميت أو معلومًا منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ويحق القول﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿على الكافرين﴾ الذين لا يتأمّلون، ولا يتوقع منهم الإيمان.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾.

﴿مما عملت أيدينا﴾ مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال: ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو وعمل الأيدي استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فهم لها مالكون﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون أو فهم لها ضابطون قاهرون من قوله:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

أي لا أضبطه وهو من جملة النعم الظاهرة وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها كما قال القائل:

يصرفه الصبيّ بكل وجه ويحسبه عن الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوي فلا غير لديه ولا نكير

وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾.

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وقرئ ركوبهم وركوبتهم وهما ما يركب كالحلوب والحلوبة وقيل: الركوبة جمع، وقرئ ركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم.

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿منافع﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿ومشارب﴾ من اللبن ذكرها مجملة وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا﴾[3] الآية، والمشارب جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشرب.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾.

اتخذوا الآلهة طمعًا في أن يتقوّوا بهم ويعتضدوا بمكانهم والأمر على عكس ما قدّروا حيث هم جند لآلهتهم معدّون.

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿محضرون﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم ويغضبون لهم

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة (الحديث رقم: 2930)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: في غزوة حنين (الحديث: 78 ـ 1776).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من ينكب في سبيل الله = (الحديث رقم: 2802)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (الحديث رقم: 812 ـ 1796).

(3) سورة النمل، الآية: 80.

والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودًا للنار.

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

وقرئ: ﴿فلا يحزنك﴾ بفتح الياء وضمها من حزنه أو حزنه والمعنى فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم ﴿وما يعلنون﴾ وإنا مجاوزوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن.

فإن قُلْتَ: ما تقول فيمن يقول إن قرأ قارئ أنا نعلم بالفتح انتقضت صلاته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر؟ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام، وقياس مطرد وهذا معناه ومعنى الكسر سواء وعليه تلبية رسول الله ﷺ إنّ الحمد والنعمة لك[1] كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل والثاني أن يكون بدلاً من قولهم كأنه قيل: فلا يحزنك إنا نعلم ما يسرون، وما يعلنون وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالمًا وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقديرك فتفصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسرًا أو فاتحًا على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالمًا بسرهم وعلانيتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئًا ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فلا تكوننّ ظهيرًا للكافرين﴾[2]، ولا تكوننّ من المشركين ولا تدع مع الله إلهًا آخر.

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾.

قبح الله عزّ وجل إنكارهم البعث تقبيحًا لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي وتوغله في الخسة، وتغلغله في القحة حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخسّ شيء وأمهنه وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدّى مثله على مهانة أصله ودناءة أوّله لمخاصمة الجبار وشرز صفحته لمجادلته ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعدما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاءه من موات وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها. وروي أن جماعة من كفار قريش منهم أبيّ بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبيّ: ألا ترون إلى ما يقول محمد إنّ الله يبعث الأموات ثم قال: واللات والعزى لأصيرنّ إليه ولأخصمنه وأخذ عظمًا باليًا فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ قال ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم»[3] وقيل: معنى قوله: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينًا رجل مميز منطبق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح كما قال تعالى: ﴿ومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾[4].

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾.

فإن قُلْتَ: لم سمى قوله ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ مثلاً؟ قُلْتُ: لما دلّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أو لما فيه من التشبيه لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى فإذا قيل من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك بما يوصف الله تعالى بكونه قادرًا عليه كان تعجيزًا لله، وتشبيهًا له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات فلا يقال لم لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إنّ عظام الميتة نجسة لأنّ الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة وكذلك الشعر والعصب، ويزعمون أنّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ويقولون المراد بإحياء العظام في الآية ردّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾.

﴿وهو بكل خلق عليم﴾ يعلم كيف يخلق لا يتعاظمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها.

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾.

ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: التلبية (الحديث رقم: 1549)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: التلبية وصفتها ووقتها (الحديث رقم: 21 ـ 1184).

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/429.

(4) سورة الزخرف، الآية: 18.

مع مضادة النار الماء وانطفائها به، وهي الزناد التي تورى بها الأعراض وأكثرها من المرخ والعفار وفي أمثالهم في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار، وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب[1] قالوا: ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين، وقرئ: ﴿الأخضر﴾ على اللفظ وقرئ الخضراء على المعنى ونحوه قوله تعالى: من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم.

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾.

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الاناسي أقدر وفي معناه قوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾[2] وقرئ يقدر. قوله: ﴿أن يخلق مثلهم﴾ يحتمل معنيين أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وهو الخلاق﴾ الكثير المخلوقات ﴿العليم﴾ الكثير المعلومات وقرئ الخالق.

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾.

﴿إنما أمره﴾ إنما شأنه ﴿إذا أراد شيئًا﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة قوله أن يقول له كن فيكون؟ **قُلْتُ:** هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.

فإن قُلْتَ: فما وجه القراءتين في فيكون؟ **قُلْتُ:** أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها، فهو يكون معطوفة على مثلها وهي أمره أن يقول له كن وأما النصب فللعطف على يقول، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئًا مما تقدر عليه من المباشرة بمحال القدرة واستعمال الآلات وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة.

فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فسبحان﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا: ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته، وقرئ ملكة كل شيء ومملكة كل شيء وملك كل شيء والمعنى واحد ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتحها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلبًا، وإن قلب القرآن يٓس من قرأ يٓس يريد بها وجه الله غفر الله تعالى له وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنين وعشرين مرة»[3] وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يٓس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفًا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ يٓس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها، وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال عليه الصلاة والسلام: إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها الا وهي سورة يٓس[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الصافات مكية

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾.

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة من قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾[5] أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله.

فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾.

﴿فالزاجرات﴾ السحاب سوقًا.

فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾.

﴿فالتاليات﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وقيل: الصافات الطير من قوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ والزاجرات: كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات: كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) سورة غافر، الآية: 57.

(3) أخرج أوله الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في= سورة يٓس (الحديث رقم: 2887).

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/171.

(5) سورة الصافات، الآية: 165.

obeikandl.com